رحيل

وداعاً حلمي التوني

ترك بصمة في الثقافة البصرية العربية وحوّل الفن شأناً شعبياً

آخر تجارب التشكيلي المصري الراحل مع فلسطين كانت قبل أشهر قليلة، حين وقّع غلاف ورسومات كتاب للفتيان بعنوان «العودةُ تبدأ منك»

حلمي التوني (1934 - 2024)، تسعون عاماً من بهجة اللون

محمد علاوة حاجي

على خلاف توقُّعات والده بأن يلتحق بكلّية الهندسة، على خُطى كثيرٍ من أفراد عائلته من المعماريّين والمهندسين، ويحمل لقب «باش مهندس»، اختار حلمي عبد الحليم أحمد التوني (1934 - 2024)، الذي وُلد في مدينة بني سويف ونشأ في مسقط رأس والدته - حيّ السيّدة زينب بالقاهرة - مساراً آخر سيكون له أثرُه على الثقافة البصرية العربية لأكثر من خمسة عقود. كانت «كلّية الفنون الجميلة» في العاصمة المصرية وجهةَ الشاب المصري الذي لم يتجاوز حينها التاسعة عشرة من عمره؛ حيث سيلتحق بها عام 1953، ليتخرّج منها، بعد خمس سنوات من ذلك (1958)، ببكالوريوس في تخصُّص الديكور المسرحي.

لكن، أيُّ سياق دفع الفنّان التشكيلي والمصمّم المصري البارز، الذي غادر عالمنا أمس السبت، إلى هذا المسار، وأيّةُ رؤية كان يحملها؟ يُجيبنا حلمي التوني عن هذين السؤالَين، وهو يتحدّث عن المناخ الثقافي الذي نشأ فيه، ضمن حوارٍ مطوَّل مع المصمِّمة والأكاديمية اللبنانية ياسمين نشابة طعان، استهلّت به كتابها «حلمي التوني: استحضار الثقافة العربية الشعبية» (2014) الذي كان أوّل إصدار ضمن سلسلة «مكتبة التصميم العربي» الذي خصّصته «مؤسّسة خطّ» في أمستردام للإضاءة على تجارب عددٍ من روّاد التصميم العربي ما بين الستّينيات والثمانينيات.

يَذكُر التوني، في الحوار، أنّه نشأ خلال ما يُشار إليه غالباً بـ«نهضة مصر»؛ حيث برز اهتمامٌ متزايد بإنتاج الكِتاب وبالفنّ التشكيلي، لكن في سياق كانت فيه المَعارض والمتاحف شبه غائبة؛ إذ لم يكن الجمهور المصري العريض خلال الستينيات معتاداً على زيارة المعارض، وأيضاً «خلال الخمسينيات والستينيات في القاهرة، كان مفهوم الفنّ الملتزم جديداً. كان العديد من الناس يعتقدون بأنّ الفنّ من الكماليات كونه يخاطب شريحة صغيرة من الناس، ألا وهي النخبة»، مضيفاً أنّ ذلك «أدّى بنا إلى اتخاذ قرارنا بإيصال الفنّ إلى الناس، وكانت الوسيلة المثلى للقيام بذلك هي نشر الصور في المطبوعات والكتب والإعلام».

تُفسّر هذه الرؤيةُ ذلك الارتباطَ الوثيق لاسم التوني، رسّاماً ومصمّماً، بالصحافة والكُتب، وهذا الارتباط يُفسّر بدوره الانتشارَ الواسعَ لأعماله الفنّية مقارنةً بكثير غيره من الفنّانين المصريّين والعرب؛ حيث ظلّت تلك الأعمال تُقدَّم للمتلقّي عبر «وسائط جماهيرية»، بدءاً بمجلّة «الكواكب» منذ نهاية الخمسينيات، و«دار الهلال» التي عمل مشرفاً فنّياً لإصداراتها، قبل أن يُغادر إلى بيروت عام 1971، بعد إصدار أنور السادات قراراً بفصله من «الهلال»، إلى جانب 104 صحافياً، بسبب مطالبتهم بإنهاء حالة اللاحرب واللاسلم مع الإحتلال الإسرائيلي.

هناك، بدأ التوني مرحلةً جديدة مع التحاقه بـ«المؤسّسة العربية للدراسات والنشر» الذي تزامن مع انتقال «منظّمة التحرير الفلسطينية» إلى العاصمة اللبنانية. وخلال هذه الفترة، صمّم شعار وماكيت صحيفة «السفير»، واشتغل مع مجموعة من الكتّاب والفنّانين التشكيليّين العرب في إطلاق «دار الفتى العربي» لكتب الأطفال (حلّ مديراً فنياً للدار بعد كمال بُلّاطة الذي وضع رؤيتها الفنية) ضمن مشروع سعى إلى مخاطبة الطفل بحساسية جديدَة تقدّم له القضايا الوطنية وفي مقدّمتها فلسطين... واستمرّت التجربة لاحقاً مع دُور نشر ومجلّات أُخرى؛ مثل «دار العودة» و«دار ابن رشد» و«دار الشروق» ومجلّتَي «وجهات نظر» المصرية و«العربي» الكويتية.

صمّم التوني أكثر من أربعة آلاف غلاف لأعمال كتّاب وشعراء مصريّين وعرب؛ بحيث

> يندر أن قارئاً عربياً لم يقرأ كتاباً واحداً على الأقل من تصميمه

> حرّر الفن من حدود الكماليات وسعى لتقريبه من عموم الناس

ترك بصمة واضحة في عالم صناعة الكتاب العربي إذ يندر أن قارئاً عربياً لم يقرأ كتاباً واحداً على الأقل من تصميم التوني. هذا إلى جانب اشتغالاته في تصميم ملصقات الأفلام والمسرحيات والمعارض، والإعلانات، وتصميم شخصيات مسرح العرائس (مع صلاح جاهين)، كلُّ ذلك بالموازاة مع لوحته التشكيلية (الزيتية) التي كرّس فيها مفهوم الفنّ الشعبي، مستحضراً التراث القبطي والإسلامي والفرعوني والأفريقي والعربي، ضمن نبرة غنائية تحتفي بالمرأة والطفولة والموسيقى والمقاوَمة.

وحضرت القضية الفلسطينية في أعمال التوني منذ السبعينيات؛ حيث رسم الكثير من اللوحات التي قارب فيها الكفاح الفلسطيني مِن خلال رسومات لنساء وأطفال، كما صمّم العشرات من الملصقات التي مجّدت المقاومة في سياق تعاوُنه مع إعلام «منظّمة التحرير الفلسطينية»، ووثّق حصار بيروت الذي عاشه عام 1982، وسجّل برسوماته يوميات الانتفاضة الفلسطينية منذ اندلاعها سنة 1987، وظلّ مستمرّاً في التفاعُل مع كلّ الأحداث التي عاشها الشعب الفلسطيني، وصولاً إلى حرب الإبادة المستمرّة على غزّة منذ أحد عشر شهراً، حين أخذ ينشر أعمالاً جديدة عن فلسطين ويُعيد نشر أعمالٍ قديمة من أرشيفه عبر حسابه على فيسبوك.

آخر تجارب حلمي التوني مع فلسطين كانت قبل أشهر قليلة، حين وقّع غلاف ورسومات كتابٍ للفتيان للمؤلّفة والباحثة ميسون سكّريةٍ بعنوان «العودة تبدأ منك» («مؤسّسة الدراسات الفلسطينية»، 2024)، تروي فيه قصّة مراهقَين فلسطينيّين من «مخيّم شاتيلا» في بيروت يحاولان البحث عن وطن واكتشاف سبب كونهما لاجئَين، إلى أن تزورهما شجرة زيتون قديمة من فلسطين في المنام وتتحدّاهما قائلة: «العودة تبدأ منكما».

معرض

لوحات تنتصر للحياة والمقاومة

غزّة أربعون فنّاناً في بيروت

تتنوّع خامات الأعمال المشاركة في المعرض، المُقام حاليّاً في بيروت، بين اللوحات التشكيلية والمُلصقات والمنحوتات والأفلام القصيرة

جانب من المعرض (العربي الجديد)

بيروت ـ **العربي الجديد**

«هذا معرض فنّي ليس عاديّاً، وليس نشاطاً تضامنياً مع غزّة، وأيضاً ليس وقفة احتجاجية أمام السفارات أو وزارات الخارجية أو المكاتب الرئاسية أو في ساحات العواصم، وإنما هو محاولة متواضعة جدّاً للحفاظ على إنسانيتنا ولإثبات أنّنا أحياء، وأنّنا نستطيع أن نُثبت دورنا في الحفاظ على ما تبقّى من حياة لننطلق ونُبعث من جديد؛ أحياء بالفعل والعمل والسعي لوقف الإبادة، وليس فقط بالصلاة والدعاء». بهذه الكلمات تُقدّم «مؤسّسة الدراسات الفلسطينية» و«دار النمر للثقافة والفنون» في بيروت للمعرض الجماعي الذي تُنظّمانه بالشراكة مع «المتحف الفلسطيني» في بيرزيت تحت عنوان «غزّة»، والذي افتُتح في مقرّ المؤسّسة ببيروت في منتصف تموز/ يوليو الماضي، ويتواصل حتى نهاية حرب الإبادة الصهيونية في غزّة، وفق ما أعلنه المُنظّمون.

يُشارك في المعرض أربعون فنّاناً من فلسطين وبلدان عربية مختلفة، يُقدّمون أعمالاً تتوزّع خاماتُها بين اللوحات التشكيلية والمُلصقات والمنحوتات والأفلام القصيرة التي تتمحور حول غزّة منذ احتلالها عام 1967، ثمّ في حصارها بدءاً من عام 2006، والعُدوانات التي تلت ذلك أعوام 2008 و2014 و2021، وصولاً إلى حرب الإبادة الشاملة والمُستمرّة منذ أحد عشر شهراً.

يُمكن أن نقرأ اللوحات والتصاميم التي تتوزّع على مساحة طابقين من بناء «مؤسّسة الدراسات الفلسطينية»، انطلاقاً من عملٍ لأريج قاعود بعنوان «المقاومة أعمق أشكال الحبّ» (ورق أرشيفي، 10 × 15 سم، 2023)، وهو الأصغر حجماً في المعرض، حيث تكتفي الفنّانة الفلسطينية بأن تخُطّ هذه الكلمات البسيطة بحبر أزرق على ورقة بيضاء باللغتين العربية والإنكليزية. وبجوارها تماماً عُلّق عملٌ بلا عنوان (أكريليك على قماش، 50 × 80 سم، 2024) للتشكيلي اللبناني أسامة بعلبكي، يُمثّل مُقاوماً يرمي قذيفة محمولة على الكتف صوب العدوّ ويطغى عليه اللون الرمادي، في حين تنتصب على الجدار المقابل لوحة «كيف رأيتُ غزّة (طائرة)» (طباعة أرشيفية على ورق، 2018) لعيسى ديبي يُعبّر من خلالها عن وحشية الطائرات الصهيونية التي ترمي الناس بالموت، وفيها أيضاً يطغى الرمادي المأخوذ من حُطام العمارات الإسمنتية التي بناها الغزّيون بدماء القلوب.

وتنقل لوحات «غزّة» مروحةً من المَشاهد والألوان، حيث يُصوّر فايز الحسني في عملِه «عُزلة» (أكريليك على قماش، 2016) حضور الثوب الفلسطيني في حياة النساء. هناك شمسٌ وطيور وأقنعة تُحيل بدورها إلى شيء واحد هو الحُزن. أمّا التشكيلي فتحي غبن، الذي رحل مؤخّراً متأثّراً بمرضه في ظلّ ظروف الحصار والإبادة، فينقل في عدد من لوحاته وجوه الفلسطينيّين التي تركها الاحتلال مُتّشحةً بالأسى بعد أن سرق أرضها وقتل شعبها، وهي ثيماتٌ يتردّد صداها عند كُلٍّ من فوزي العمراني («القُبلة الأخيرة»، 1998)، وكامل المغني («الشعب والأرض»، 1978)، وليلى الشوّا (عمل بلا عنوان من السلسلة التركمانية، 2020)، وماهر ناجي («ثورة»، 2015)، ومحمد أبو سُل («صبّار»، 2015)، ومحمد الحواجري («ابني»، 2014)، والقاسم المشترك بين هؤلاء الفنّانين أنّهم كلّهم من أبناء غزّة.

> رصدٌ فنّي للإبادة الراهنة وما سبقها من حصار وعُدوانات

كما تحضر البورتريهات في المعرض بقوّة، ومن أبرزها عمل للتشكيلي السوري بطرس المعرّي بعنوان «طبيباً جريحاً أسيراً شهيداً: عدنان أحمد عطية البرش»، يُكرّم فيه ذكرى الطبيب الفلسطيني الشهيد الذي قتله الاحتلال في التاسع عشر من نيسان/ إبريل الماضي، وبورتريه ثانٍ بلا عنوان وقّعه تيسير البطنيجي عام 1997، وثالث لمحمد الركوعي يظهر فيه وجه امرأة لوَّحته الشمس. ومن بورتريهات المعرض أيضاً: «سلام» لعبد الرحمن المزين، و«الأمّ، غزّة» لسمية صبيح، كما يُمكن إدراج الفيلم القصير «إيموجي» لشيماء حسنين في هذا الصنف نظراً إلى تركيز على لقطة واحدة بالاعتماد على الوجه. كذلك نلحظ ثيمات: البيوت («وجه المدينة» فيلم قصير لشيرين عبد الكريم)، والأطفال («طفل ولعبة» لرائد عيسى)، والعائلة (عمل بلا عنوان لدينا مطر، 2019)، والأرض («هولي لاند» لحازم حرب، 2021)، والمُلصقات («وستنهض من بين الأنقاض صنوبرة الحزن» للفنّان اللبناني حسين ناصر الدين، 2021)، في حين يستعير الفنّان هاني زعرب صُور الأشعّة الطبّية ويُعيد تشكيلها فنّياً في عمله «داخل الوقت 2» (مواد مختلفة وكولاج على ورق كانسون، 2020). يُشارك في المعرض أيضاً: سلمان النواتي، وأمجد غنّام، وأمل النخالة، وإبراهيم المزيّن، وهاني علقم، وتمام الأكحل، وتيسير بركات، وجهاد جربوع، وحسين ماضي، وخالد جرادة، وضياء مراد، ورانيا ستيفان، وساهر نصار، وشادي الزقزوق، وشريف سرحان، وعمران القيسي، ومحمد جحا، ومؤيد أبو أمونة، ووائل السوسي، ووسيم السعدي، والسوريّان ليلى حمزة ومحمد المفتي، والمصرية مريم صلاح، والبريطاني نيل وود، والهولندية إنغريد رولما.

متابعة

مهرجان هاي كويريتارو مساحات مكسيكية

نافذة على العالَم وقضاياه

ثمانية وأربعون لقاءً ثقافياً يحتضنها «مهرجان هاي كويريتارو» في فضاءات المدينة المكسيكية، بمشاركة ضيوف من أكثر من اثنين وعشرين بلداً

جعفر العلوني

منذ 2016، تتحوّل مدينة سانتياغو دي كويريتارو المكسيكية، بداية من الأسبوع الأوّل من شهر أيلول/ سبتمبر، إلى نافذة مفتوحة على العالَم وقضاياه، في مزيجٍ من الموسيقى والشعر والفكر والنقاشات والحوارات والأمسيات الثقافية، حيث تصبح ساحات المدينة مسرحاً كبيراً مفتوحاً على الهواء الطلق، يستضيف شعراء وكتّاباً وموسيقيّين وتشكيليّين وعلماء وناشطين ومفكّرين من مختلف أنحاء العالم.

هذا العام، يجتمع ضيوف من أكثر من اثنين وعشرين بلداً في النسخة التاسعة من مهرجان «Hay Festival» Querétaro، الذي تنظّمه مؤسّسة «Hay Festival Global» العالمية غير الربحيّة، والذي بدأت فعالياته الثقافية الخميس الماضي. على مدى أسبوع ينظّم المهرجان ثمانية وأربعين لقاءً وحواراً ونقاشاً وأمسيةً شعريةً وجلسة حوارية، في مسارح وحدائق وفضاءات المدينة القديمة، بمشاركة عددٍ من كتّاب العالم ومبدعيه في شتّى المجالات. افتتحت الكاتبة الفرنسية المقيمة في المكسيك نيج سينو فعاليات المهرجان عبر لقاء مفتوح مع الجمهور وطلّاب جامعات المكسيك، تحدّثت فيه عن روايتها «النمر الحزين»، التي حقّقت انتشاراً كبيراً، وتتناول فيها جرائم الاعتداءات الجنسية ضدّ الأطفال.

وفي اليوم الثاني ازدادت حرارة النقاشات، وكانت موضوعات الحرب والفقر والسلام والنزاعات رئيسية فيها، ولعلّ أبرز الحضور في هذه الجلسات كان للحائزتين «جائزة نوبل للسلام» الأوكرانية أولكساندرا ماتفيتشوك التي روت عمليات توثيق جرائم الحرب التي ارتكبتها روسيا في غزوها لأوكرانيا من وجهة نظرها وتجربتها، والناشطة الباكستانية ملالا يوسفزي المدافعة عن حقّ النساء في التعلم، والتي تعرّضت لرصاصة في رأسها من قبل «حركة طالبان» عام 2012.

من أوكرانيا إلى تشيلي، وبحضور واحد من أبرز شعراء العالَم الناطقين باللغة الإسبانية، انطلقت جلسات اليوم الثالث مع الشاعر راؤول زوريتا، حيث حاوره رئيس تحرير جريدة «الباييس» في أميركا اللاتينية، الصحافي والكاتب مارتينيز آهرينيز. وكعادته، من يستمع لقصائد زوريتا، ولكلماته عامة، لا يستطيع إلّا أن يفكر في المذابح التي لا تنتهي في التاريخ، ولا يستطيع إلّا أن يسمع أصواتاً تدلّنا على الخراب والعنف والقلق والألم الحاضر دائماً في حياتنا؛ قصائده حوار دائم مع الموتى، حوارٌ مع المظلومين والمشرّدين والمدمّرين، حوار مع أصحاب الحقّ والأرض والتاريخ.

أمّا في يوم غدٍ، فسيكون الحضور العربي وقضاياه المركزية، وعلى رأسها فلسطين وحرب الإبادة الجماعية، في ندوة مع الزميل الشاعر نجوان درويش، الذي تحاوره الكاتبة والناقدة الأدبية الإسبانية مارينا بيريثاغوا بوصفه «الصوت الشعري الأكثر تعبيراً عن ضحايا بلده» في عدوان الإبادة الذي تشنّه «إسرائيل» منذ السابع من أكتوبر، كما جاء في ملصق اللقاء. وسيتناول النقاش المجموعتين الشعريتين اللتين صدرتا للشاعر بالإسبانية مؤخّراً عن دار «باسو روتو»، وهما: «Exhausto en la Cruz» (تَعِبَ المعلّقون)، و«Nada más que perder» (لم يعد لدينا ما نُضيّعه).

إن كانت الإحاطة بجلسات المهرجان وأمسياته ونقاشاته العديدة والمتنوّعة صعبة، وكان أصعب ذكر المشاركين كلّهم الذين من بينهم الكاتب الفرنسي باتريك أوترو، والأرجنتينية ليلى غيريرو، والشاعر المكسيكي لويس فيليبي فابري، والكاتبة الإسبانية سارة باكينيرو، إضافة إلى الكاتبة الزيمبابوية پيتينا جاپاه وغيرها الكثير، فإنّ الموضوعات التي يناقشها المهرجان الأدبي وانفتاحه على الثقافات والقضايا الراهنة تُبرز مدى جدّية هذا النوع من المهرجانات الأدبية، وضرورة حضور الأصوات الإبداعية العربية فيه دليلاً على أنّ العالم متنوّع وفيه إبداعات وأصوات تعبّر عن شعوبها وهمومها وقضاياها.

> يناقش التحديات السياسية والثقافية والبيئية في عصرنا

يُذكر أنَّ مهرجان «Hay Festival Global»، الذي يحمل اسم المؤسّسة نفسها، تأسّس في مدينة صُنع الكتب الويلزية Hay-on-Wye، عام 1987. وبعد مرور سبعة وثلاثين عاماً، صار مهرجاناً عالمياً يقيم فعاليات ومشاريع حول العالم، وينظّم خمسة مهرجانات عالمية، بدءاً من مدينة كارتاخينا دي إندياس التاريخية في كولومبيا وإلى قلب المدن في البيرو (أريكيبا) والمكسيك (سانتياغو دي كويريتارو) وإسبانيا (شقوبية وإشبيلية) والولايات المتّحدة (دالاس) وبنما (العاصمة)، ويهدف إلى استقطاب الأصوات المتنوعة للتحدّث والمناقشة والإبداع والحوار حول التحديات السياسية والثقافية والاجتماعية والبيئية في عصرنا.

وقد عرف العالم العربي مهرجان الهاي فيستيفال في عام 2009 حين نَظّم «مهرجان بيروت 39» والذي قدّم قائمة بـ 39 كاتباً عربياً تحت عمر التاسعة والثلاثين «لاكتشاف أفضل الكتّاب العرب دون الأربعين» في ما عرف وقتها بـ«جائزة بيروت 39»، وكان من بين الفائزين بها: ربيع جابر، وسمر يزبك، وعدنية شبلي، ونجوان درويش، ومحمد حسن علوان، وأحمد يماني، ومنصور الصويم، وهيام يارد، وهالة كوثراني، ونجوى بن شتوان، ويوسف رخا.

الشاعر التشيلي راؤول زوريتا في المهرجان (دميان غارسيا)

إطلالة

في مديح الحُبّ

عباس بيضون

«هدهد سين» مجموعة علي مطر الشعرية الجديدة التي طال تأخُّرها. المجموعة التي تتجاوز مئة صفحة بقليل، مكرّسة بكاملها للحُب، بل هي منذورة لحُب واحد، بل ولامرأة واحدة ينمّ عنها العنوان. فهدهد سين هو شاعرها، وسين محبوبته، والمجموعة رسائله إليها، بل هي حديثه عنها، إن لم نقل دورانه حولها. «هدهد سين» هي، على نحو ما، تبحُّر واستدعاء وتأمُّل، في ما يلح على أنّه سيرة واحدة.

هكذا ننتبه إلى أنّ المجموعة، من وراء السنين، تسترجع ماضياً للحُب، كان يضمّ اسمَين، فنقول قيس ليلى وكثير عزّة وعنتر عبلة. لنقُل إنّ شعراً كهذا يردّنا إلى أطروحة كاملة عن الحُب، وبُعد شخصي له، وقربى ما بين الشعر والسيرة، بل وتقاطع بين الغناء والحياة الشخصية. لعلّنا، في الوقت ذاته، نذكر أنّ القصيدة الراهنة تغضي تقريباً عن الحُبّ، ولا تقيم من السيرة الخاصّة موضوعاً شاملاً. نزار قبّاني كرّس جانباً أعمّ، من شعره، للحُبّ، لكن الأسماء عنده تعدّدت، ولم تقف على واحدة. اليوم يشطح الشعر بعيداً عن الحياة الخاصّة، لا نجد شعراً مكرَّساً لامرأة باسم معلن، شأن مجموعة علي مطر الأخيرة التي تكاد تجد الحُبّ، بل وامرأةً واحدة، ما يتوازى مع اسم واحد وحكاية خاصّة.

في «هدهد سين» (مرفأ للثقافة والفنون، 2024) ما يُناظر الشعر ويكاد يوازيه، رسوم شوقي يوسف التي هي، على نحو ما، قراءتُه الخاصّة للشعر، وقدرته على خلق ما يقابلها، بل ويبدو إزاءها قصائد مرسومة. نقرأ تحت عنوان لافت «فخر الحب»: «لم يَكتب واحدُ من قبل عن الفخر بالحب». من الواضح أنّ الشاعر هنا يعود إلى أغراض الشعر القديم، بل يصل بين الحُبّ والفخر الذي يردّه موازياً للشعر بكلّيته. كأنّ مطر في ذلك يقول إنّ الحُبّ هو الشعر ويضعه حيث يضع الشعر، بل يجده في قرارته ولبّه «في عمق الصورة/ الحُبّ وحيد/ ونحن نعضّ عليه بأسنان الحُبّ».

الشعر إذاً هو الفخر، ذلك ما يجعلنا نسأل إذا لم يكن الحُبّ هو كلّ أغراض الشعر الكبرى (الفخر، المديح، الغزل، الوصف)، بل ويدعونا إلى سؤال آخر، عمّا هو مكان الحُبّ من المديح، ألسنا نجد هكذا أنّ الحب قد يكون المديح أيضاً، بل نحن، إذا نظرنا إلى المديح في شموله، سنجد أنه تغنٍّ بالحياة كلّها، واحتفال بها، هكذا يبدو مرادفاً للحُبّ، بل ويبدو، من هذا الطريق، موازياً للشعر، إنْ لم يكُن أصلاً له. يمكننا هكذا أن نجد في «هدهد سين» ليس فقط بسطاً للحُبّ وتأمّلاً فيه، بل هو من هذه الناحية عود إلى الحياة، إلى «عمق الصورة» كما يقول مطر: «حين تقرعين جرس الباب/ سيكون كلُّ شيء مرتَّباً بما في ذلك دقّات قلبي».

إذا واكبنا الشاعر في ردّه الشعر إلى أصوله وأغراضه الماضية. إذا وجد في الحُبّ مديحاً وايجاباً وتغنّياً، فإنّ هذا ليس كلّ شيء، الحُبّ ليس فقط بهذا الوجه المتسامي الثريّ المجيد، ليس فقط في مستواه الأعلى، وفي سماواته وجنينته. الحُبّ في شعر مطر ليس أغنية فحسب، ليس جوهراً أو حقيقة فقط، إنّه، في الجهة المقابلة، ما يمكن أن نسمّيه هبوطاً وتدنّياً، بل ما يمكن أن نجد فيه أيضاً المدينة الحديثة بسردها ويومياتها وتفاصيلها، بل ما يمكن أن نجد فيه من دراما الحياة ونزاعاتها، وما يلازم ذلك من عنف وقسوة وشراهة والتهام: «ما عضّ بأسناني وروحي/ بأسنان روحي»، «وتستبدل أنفك بأنف ذبت كي يشم الحقيقة»، و«سأنزل في أيّ أوتيل نسيت فيه/ كيلوتك»، و«كأن نأكل الكاراميل وتأكلني وآكلك»، و«يختم فتقاً في الروح»، و«أركع أمام سين وأفتح فمي كالنمر/ كي ترى وجهها مطبوعاً على كبدي».

يستتبع ذلك سؤال الحُبّ، الذي ليس متعالياً فحسب، بل له أيضاً سلبه ونفيه وانحداره: «حيث لا يمكن تصديق الأشياء وحيث تنعدم النبوءات/ وتكثر بكتيريا الموسيقى وتكثر أيضاً قبلات/ على هيئة نجوم عابرة».

للحُبّ أيضاً درسه بل وله نقده، هنا يهبط الحب ليصير فكرة دامغة أو مدموغة «وحين يظنّ الجميع أنّي لا أفعل شيئاً/ سوى أن أصمّم كعبك العالي»، و«لتقل سين قصيدتها/ عن الحُبّ والتبغ والجنس وعلم الأحلام وزهرة اللوتس/ عن المعنى والخيال والبطن والطريق/ وزرّ القميص المفتوح عند الصدر»، ألسنا هنا في أمكنة شتّى، وأغراض شتّى، وأزمنة شتّى، إنّه غناء لا نعرف متى يستدق، ومتى ينخفض، ومتى يغدو تساؤلاً أخرس وفكرة جرداء.

(شاعر وروائي من لبنان)

فعاليات

تُقيم «مؤسّسة عبد المحسن القطّان» في رام الله، عند السادسة من مساء بعد غد، حوارية بعنوان **دراسة الفلكلور ورهانات الهوية**. تتناول الحوارية مفهوم الفلكلور وخصوصيته في السياق الفلسطيني، وعلاقته بمفهوم الأمّة والقضية الفلسطينية، ويتحدّث فيها كلّ من: **مها أبو شوشة**، و**خلدون بشارة**، و**منير نصار**، ويحاورهم **سليم تماري**.

همسات الأرض عنوان معرض للفنّانة الأردنية **وداد الدباس**، يستمرّ في «المتحف الوطني الأردني للفنون الجميلة» بعمّان حتى السادس والعشرين من الشهر الجاري. يتناول المعرض موضوع الأرض من خلال 26 عملاً فوتوغرافياً مؤطّرة باستخدام مواد عضوية وبديلة، التقطتها الفنّانة خلال رحلاتها في الأردن ومناطق من حول العالم.

تنطلق، عند الثامنة من صباح غد، في «مكتبة قطر الوطنية» بالدوحة، أشغال **ورشة الدوحة الثالثة لمكافحة الاتجار غير المشروع بالممتلكات الثقافية**، وتستمر لأربعة أيام. تهدف الورشة، التي يقدّمها خبراء إقليميون ودوليون، إلى تعزيز الإطار القانوني والتشريعي المعنيّ بحماية التراث الثقافي في المنطقة العربية.

يحتضن «مترو المدينة» في بيروت، عند التاسعة من مساء الحادي عشر من الشهر الجاري، حفلاً موسيقياً لإطلاق ألبوم **نفَس** للفنّانة اللبنانية **سلوى جرادات**. جمعت جرادات، في الألبوم، أشعاراً لنساء متصوّفات من العالم العربي وحوّلتها إلى أفكار موسيقيّة خلال إقامة فنّية في «بيت الفنّان» ببلدة حمانا اللبنانية.

ثقافة

تخصّص «العربي الجديد» صفحة «نصوص الحياة والحرب من غزّة» لشعراء وروائيين ومسرحيين وفنانين من قطاع غزة، كي يعبّروا عن تفاصيل الحياة اليومية تحت القصف الإسرائيلي

نصوص الحياة والحرب من غزّة

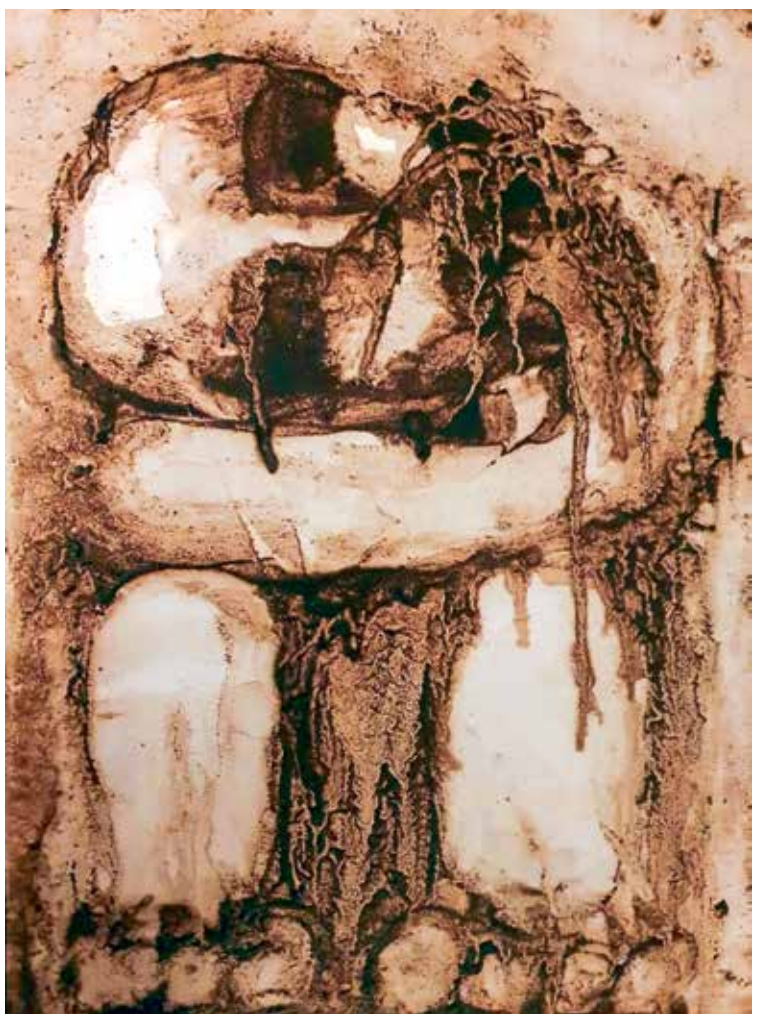

عمل للفنان الفلسطيني انس سلامة

كمال صبح روائي

في شارع الحرب

وصلت إلى شارع الحرب بكامل تأنّقي، كنتُ على منعطف يخفي عني رصيفا تقيّأ أحشاءه الرملية، وتناثرت حجارته، ثمّة نبع من دم ما زال غضاً تفوح منه رائحة الإنسان، رغم اختلاطه برمل الرصيف، بالقرب منه فتاة تحاول أن تقطع مسافة الرمل بكرسيها المدولب، تتعثر عجلات الكرسي بحجارة الرصيف، فتنقبض أساريرها المتعرقة، تحاول عبثاً أن تحرّك عجلة الكرسي، فينفجر ذات السائل القاني من ثقوب قضبان معدنية صقيلة غرستها يد الطبيب في عظام ساعدها غداة ذلك الانفجار.
تنظر نحو رجفة كفّيها وهما يقبضان على عجلات الكرسي، فتغلبها دمعة تشق طريقها وسط غبار خديها، فالدمع هنا حليف الانكسار.
تتفشى في مدى الشارع غيمة من دخان أسود تمتصّها كلّ مسامات الأبنية التي انهارت تباعاً، فوقفت أنتظر انقشاعها، حتى بدت سيدة تخفي في حجر ثوبها الفضفاض لفافة بيضاء مربوطة من طرفيها، لم تأبه تلك السيدة لبقع الدم التي امتصها القماش الأبيض من جسد رضيعها بعد أن شطرته شظايا الموت إلى نصفين.

■■■

كانت الريح الموبوءة بغبار أسود قد تركت على وجهي بعضاً من صبغتها، ولم أجد في الإناء المثقوب بجانب الرصيف قطرة تزيل عن وجهي ملامح الصدمة، فتقدّمت نحو طفلة تقرفص على حافة الرصيف، لم أفهم؛ لماذا تضمّ ذراعيها إلى صدرها، وحين اقتربت أكثر، وجدتها تحتضن دميةً مبتورة الأطراف، وكسرة خبز.
للانفجار في مدى الشارع صوتان، أحدهما يسبق غيمة من غبار وحطام أشياء كانت للتو شرفة لأصائص الورد والعصافير، وقتار اللحم المحروق وبعض الأشلاء، وصوت آخر كأنه يشير إلى أعين العابرين وسط الدخان بلونيه بأن الانفجار كان حداً بين الموت والحياة، للقنابل دخان أبيض كأنها تزور حقيقة الموت فتنسجه أبيض كالأكفان، ولكل الأشياء الموءودة دخان أسود كثوب الحداد.
تقدمت بخطىً متئدة نحو كهل ينظر نحو السماء إلى أرواح أحفاده التي تصعد تباعاً بعينين حمراوين، وبشعره الأشيب والأشعث ولحيته النابتة، يرمقني بنظرة حمراء، ثم يعرج بذات النظرة الحمراء إلى السماء كأنه غاضب منها وعليها، قالت بحّة الحزن في صوته المثخن، كانوا أربعة أطفال تركت معهم حلمي بأن يعود والدهم بعدما قصف منزلهم ولم يعثروا عليه، ثمة أمل بأنه ما زال حياً، فأنا لم أره ميتاً، قال الكهل وقد غلبه النحيب:
- لعله أرسل في طلبهم، فلبوا النداء.
فككت عني ربطة العنق، وألقيت بسترتي بعيداً، فبدا قميصي الأبيض متسخاً، لا بأس؛ الآن لن ينكرني أي من الخارجين لتوهم من فوهة النار بعد قصف بيوتهم.

■■■

سرتُ مرة أخرى إلى البيت التالي. كلّ ما رأيته كومة من الركام بحجم بيتين، لا أدري لمَ يبدو الركام بحجم بيتين. أكان ركام ذلك البيت وحده أم أن الانفجارات المتلاحقة أضافت ركام بيوت أخرى؟ ثمة صوت يخرج من بين ثنايا الغبار، يضيع شيئاً فشيئاً في صخب المنقذين وآلات الحفر الضعيفة، يخبو صوت المنادي، وتهدأ آلات الحفر، ينفض أحد العمال تراب الركام عن بزته، فيصرخ عجوز تعثّر مرتين في طريقه القصير إلى رجل الإنقاذ:
- ما زال أبنائي تحت الركام، كانت أصواتهم حية قبل قليل، أتوسل إليك لا تغادر، حاول مرة أخرى قد يخرجون أحياء
يذعن رجل الإنقاذ لرغبة العجوز ويحفر بأصابعه بين الحجارة، وكذلك كان نحيبه يعلو على صوت الرجاء كما فعلت آلات الحفر القديمة.

■■■

أمام المنزل التالي خيمة نازح أقامها قبل أيام بعد أن لاحقته طائرات الحمم الحمراء حول منزله الأول، خرجت سيدة في منتصف العمر تتفقد شارعها الجديد، وعادت مسرعة تجمع أشياءها وتحث ابنها على البحث عن أبيه، وعلى نحو مباغت، وضعت أكياسها أمام الخيمة لبدء النزوح التالي، ابتعدت قليلاً عن خيمتها كي ترقب في مدى الشارع عودة زوجها، فأفاقت بعد قذيفة في المشفى، وبجانبها كلّ الأجزاء المبتورة من لحم صغارها.
سألتني امرأة كانت تهرول حافية القدمين:
- أين يدفنون أشلاء الشهداء؟ بالأمس أخذوا شيئاً من أجساد أبنائي، ودفنت أنا ما تبقى خلفهم في باحة المنزل المهدوم، أخبرني؛ كيف يكون للشهيد قبران؟
أرهقني سؤال الكهل، فما عدتُ أقدر على السير خطوة أخرى، فجلستُ على جذع شجرة كانت قد قصفت قبل يومين، فأصبحت مقعداً بجوار حائط متصدع نتيجة ذات القصف، وفي باحة بين منزلين في الجانب المقابل لي، ثمة خيمتان لعائلتين نزحتا معاً، أخبرني أحدهم وقد أتى نحوي؛ تعلو وجهه مسحة غضب وكثير من غضون أيام وساعات تركت همومها عصية على الغسل كبقع الشمس حين تُعمل لهيبها في خدّ ناصع البياض.

■■■

يقول الرجل بلغة العارف بالمساحات الخلفية للقهر كيف تنبت فيها بذور النقائص، وكيف تمتدّ أيدي الحصار والتجويع والقتل والتشريد لترعى الدونية والشخصنة والطمع والسرقة، ويسأل، كيف يحفظ المرء قيمه في عالم يضعها على صدر إعلانات المطلوبين والكلمة الشهيرة «مطلوب» تتربع أعلى الإعلان على قارعة النزوح الدائم والمؤقت.
يردف الرجل، نزحتُ مع جاري وكلانا عاطل من العمل بعد تدمير دكاكيننا، ولم يكن حديثنا معاً يخلو من التذمر والضيق والشتم، فتنافرنا رغماً عنا، إذ نلوك الشكوى خبزاً، لكنهم حين أخبرونا أن طائرات الإنسانية تلقي حمولتها على رؤوس الناس هرعنا معاً لنأخذ نصيبنا من المساعدة المجانية، كان الطريق طويلاً فوصلنا متأخرين، لكن كثيراً من الناس ما زالوا على قيد الأمل بعودة الطائرة مرة أخرى، صرخ أحدهم: تلك الطائرة التي نسمع هديرها بنفس لون الطائرة التي ألقت حمولتها قبل قليل، لكنها أصغر قليلاً، لا بأس قد يكفينا ما قد تلقيه لنا.
نجوت بأعجوبة يقول الرجل، فقد كانت طائرة حربية قد ألقت صاروخين وانصرفت كي تصنع طريقاً لطائرة كبيرة أخرى.

■■■

أثقل الرجل صدري فسرت اتأبط خيبتي وشيئًا من هموم من صادفتهم في ذلك الشارع الغريب. نظرتُ خلفي قبل أن أبتعد عنه، كلّ شيء كان قد تغيّر، بدءا من قيمة الإنسان حتى حجارة المنازل، ففي كلّ لحظة شكل آخر يولد من صدر شكل مقيت سابق، خيمة النازح التي مررتُ بها قد احترقت، وجذع الشجرة الذي استضافني قبل لحظات أصبح هشيماً تذروه الرياح وغيوم الغبار.

المواصي. خانيونس
14 تموز / يوليو 2024.

أخذوا شيئاً من أجساد أبنائي، ودفنت أنا ما تبقى خلفهم. أخبرني؛ كيف يكون للشهيد قبرين؟

عمل للفنان الفلسطيني معتز العمري

ميسون جمال كاتبة

أحلام وواقع

صحوتُ على أصوات القذائف. ظننتُ أنني في بيتي، ظننتُ أنّ كلّ شيء قد انتهى وعادت الحياة كما كانت. ولإحباطي الشديد، عندما صحوت وجدت نفسي بين أولاد إخوتي أعيش في خيمة، نعم خيمة أعيش فيها مع عائلتي قبل ان أتزوج ولم أجد جمال زوجي ورفيق دربي، فقد رحَل في الحرب وأخذته ماكينتها اللعينة حين استشهد في ذلك اليوم الأسود. نعم صحوتُ مفزوعة مرتبكة فنحن في خيمة النزوح ووجع الحرب وقهرها وآلامها.

■■■

في الليل كنت أحلم أني في بيتي، عدتُ إليه أو أن شيئاً لم يتغير، وأن الحرب انتهت وذهبت وتركتنا وأنني، كما في حلمي، أعيش حياتي كما كانت لم يتغيّر فيها شيء، أعيش مع جمال. أفقتُ لأجد نفسي في خيمة بين أفراد أسرتي وأهلي بعد أن فقدنا من عائلتي شهداء، وهُدمت منازلنا وخربت ديارنا وذهبت أحلامنا أدراج الريح. لقد سرقت منا الحرب كلّ معاني الحياة، وكل تلك الأشياء الجميلة التي كانت لنا.
قمتُ مثلما أفعل كل صباح، أصلي وأرتدي ملابسي لأتوجّه لعملي. شربتُ شاياً وأكلت سندويشاً من الزعتر وخرجت من الخيمة لأرى معاناة الناس وحياتهم الجديدة. كأنني أفيق من حلم.
هذا السيدة العجوز تحمل غالون مياه واقفة أمام برميل المياه تنتظر دوراً.
وذلك الطفل يلملم أوراق الأشجار ليوقد النار للخبز والطبخ بعد أن ضاعت أحلام الطفولة وتبخّرت أوقات الدراسة واللعب، وذاك الطفل يبيع ما تبقّى من الكابونة لشراء أشياء أخرى، ورابع يبيع الخشب للناس، ورجلٌ يبحث في الأسماء المعلّقة على الجدران عن موعد دوره في قائمة الطحين. وزحمة الطريق وركوب الكارات والشاحنات بدلاً عن السيارات.

■■■

ياه. إلى هذا الحدّ وصلنا! كلّ هذا فقط جزء من نظرة الصباح. نظرة الصباح المؤلمة. صباحٌ بلا جمال. أوجاعنا كبيرة والفقد صعبٌ ومؤلم والأصعب عندما تجلس وحدك وتتذكر شريك حياتك ورفيق عمرك. آآآآآآه يا لمرارة الفراق.
أنام وأنا أبكي. والله من كثرة الدموع وفيضه ضعُف بصري ويكاد يذهب.
كنت أظنّ أني قوية قادرة على تخطّي المشوار بسهولة، كنتُ أقول مجرّد حرب أخرى وتنتهي ونعود لسيرتنا الأولى. فجأة انكسر عمودي الفقري عندما استشهد زوجي جمال محمد أبو رقعة، انتهت حياتي. تغيّرت. انقلبت رأساً على عقب.
جمال الطيب الخلوق المحب البسيط المؤمن الذي كان يصحو مع أذان الفجر يصلي، وبعدها يوقظني حتى أصلي. وعند السابعة والنصف وبعد أن تشرق الشمس كان يساعدني في ترتيب أشيائي، وأنا أتجهز للذهاب للعمل مشرفة على نشاطات «مركز يافا الثقافي».

■■■

بعد الحرب، صرنا نعمل على تنفيذ نشاطات ترفيهية وتثقيفية وتربوية في مراكز النزوح في منطقة خانيونس، وبعد ذلك ضمن مؤسسات دولية تساعد على تقديم خدمات للنازحين، أو المساعدة في الطهي في «تكية» أقمناها للطهي للناس ولتوزيع الوجبات عليهم. عملنا الثقافي تحول إلى إغاثي في مجمله. هذه حاجات الناس الآن.
في منتصف النهار، يتصل بي ليطئمن على سير عملي. كنتُ أشعر بهذا الحب وهذا الاهتمام. عند عودتي من العمل كان ينتظرني أمام الخيمة نسرق الوقت للحديث معاً قبل أن أدخل خيمة النساء حيث إننا نسكن مع العائلة الكبيرة وثمة خيمة للرجال وخيمة أخرى للنساء.
كان جمال يمضي وقته في متابعة شؤون المركز الثقافي. يذهب هنا ويذهب هناك باسم المركز يحاول أن يقدّم خدمات الناس ومساعدتهم قدر المستطاع. في الحرب، شعرتُ بخوفه الكبير علي وبحبّه الأكبر لي، وكنتُ أبتسم في داخلي وأفرح.

أفقتُ لأجد نفسي في خيمة بين أفراد أسرتي وأهلي بعد أن فقدنا من عائلتي شهداء، وهُدمت منازلنا

ذهَب جمال. أخذته ماكينة الحرب. انكسر العمود الفقري، وضاعت الابتسامة ولم أعد أجد الاهتمام والحب، ولم أعد أهتم فضاعت ابتسامتي. كان وجوده في الدنيا يهوّن عليّ صعوبة الحياة وقسوة النزوح، ويجعل للحياة معاني كثيرة. وكنتُ دائماً أراه ينظر إليّ من بعيد يدفعني للأمام.
لماذا ذهبتَ وتركتني!

■■■

أيام الحرب أيام عصيبة وقاهرة. تمرّ بنا كأنها كابوس لا ينتهي وسرقت منا الأمان وراحة البال وسرقت مني زوجي. أطلق القناصة عليه النار وتركه الجنود ينزف حتى صعدت روحه إلى السماء. هذة لحظات صعبة كلما أفكر فيها أموت، وأموت في اليوم ألف مرة كلّما خطرت على بالي. كلما أصحو ولا أجده بجواري، عندما يأتي موعد الغداء ولا يكون، عندما يأتي الليل ولا أجده لأتحدث معه قبل النوم. تغرق الدموع عيني وأنا أتقلّب في ذكرياتي معه وأقول «ليتك أخذتني معك».
في هذه اليوم، خرجتُ إلى عملي كالمعتاد. كنا نعيش في الخيام بعد أن اضطررنا لترك مخيم خانيونس بعد دخول الجيش إليه. عند انسحاب الجيش من المناطق التي قام بتدميرها عقب اجتياحه لمدينة ومخيم خانيونس عدنا لنتفقد بيوتنا وحارتنا ومخيمنا. سرنا من منطقة المواصي قرب البحر التي نزحنا إليها لمناطق الاجتياح السابق. ما أصعب تلك اللحظات!
كنتُ برفقة أخي الذي استشهد ابنه مع جمال نسير في الشارع في طريق عودتنا للبيت. في الطريق، يا الله، رأيت سيارة جمال. وسمعت صوتاً ينادي ويقول «هذه سيارة جمال». وقفت أمامها. أمسكتُ الكرسي الأمامي حيث كان يجلس وهو يقود وأنا أجلس بجواره. تذكرت مشاويرنا لمدينة غزّة. كانت طريقاً طويلة نسبياً. وكان جمال طوال الطريق يستمع لأغنية «تعب المشوار»..
سمعت الأغنية الآن وأنا أقف أمام السيارة. سمعتها وأنا أمسك بالكرسي، أتخيل جمال يقود بنا الطريق لغزة. بكيت. يا لقسوة التذكر. كانت الساعة السابعة صباحاً، رأتني امرأة عجوز تجلس في خيمتها بجوار السيارة، سألت: «هل هذه سيارة أخوكِ أو سيارة زوجك؟». هززتُ رأسي ومسحت دمعتي ومشيت. يا الله تعبت من المشوار.

■■■

استمرت أيام الحرب واستمر الوجع. كل يوم حكاية وكل يوم ألم جديد. في الحرب كل فقْد قصة خاصة، وفقدي كما قصتي موجع ومؤلم. في العيد كما أفعل كل عيد، جهزت ملابس وأحذية العيد لجمال لكنه لم يلبسها. في عيد الفطر، جهزتُ كل شيء وانتظرت أن تحدث معجزة ويأتي ليلبسها، كذلك في عيد الأضحى، لكنه لم يأت. ذهب وتركني. ذهبتُ للمقبرة لزيارته وعدت بوجع أكبر وأشد.
هكذا، بهذه البساطة، تستمر الحياة ويستمر وجعنا.

أول أيام عيد الأضحى
16 حزيران/ يونيو 2024.